هوامش

توصف السواقي النوبية بأنها الأكثر انتشاراً على امتداد حوض نهر النيل، من صعيد مصر حتى وسط السودان، وقد ظلت تتناقل صناعتها الأجيال، حتى وقت قريب، محتفظة بهيكلها وأجزائها التقليدية الموروثة

يقول النوبيون: لا يصعد ثوران إلى حلبة الساقية (Getty)

السواقي النوبية

حكاية من تاريخ الوادي الخصيب

القاهرة ـ **محمد كريم**

يتحمس الباحثون النوبيون في إثبات عراقة تراثهم القديم المرتبط بنهر النيل، وتفننهم في مهنة الزراعة على ضفتيه. وتمثل السواقي النوبية أحد أبرز المعالم التي ورثها المعاصرون عن أسلافهم القدامى إلى جانب المحراث. وعلى الرغم من وجود أنواع أخرى من السواقي في صعيد مصر والفيوم؛ فإن السواقي النوبية توصف بأنها الأصل والأكثر انتشاراً على امتداد حوض النهر الخالد، من صعيد مصر حتى وسط السودان، وقد ظلت تتناقل صناعتَها الأجيال، حتى وقت قريب، محتفظة بهيكلها وأجزائها التقليدية الموروثة وبذات أسمائها النوبية.

أنواع متعددة

من أنواع السواقي النوبية «الساقية الكبيرة» التي تسمى في اللغة النوبية إسيكاليه، وهي كلمة مكونة من مقطعين نوبيين «أسي – كليه»، وتعني أداة دفع الماء. وهناك «الشادوف»، وهو أيضاً مكون من مقطعين نوبيين هما «شادو – فوق» بمعنى الدافق للخارج. وهناك أيضاً الساقية الصغيرة (كولوتود)، ورافعة الآبار (البكّارة)، وساقية زراعات الجروف (نانر).

كانت الساقية الكبيرة تستخدم في زراعة المساحات الكبيرة وتدار بواسطة بقرتين أو ثور وبقرة، وذلك لكثرة عدد القواديس التي تحمل الماء من البئر (24 قادوساً). ومن الأمثال النوبية المشهورة: «لا يصعد ثوران إلى حلبة الساقية» لأن الثورين سوف يتعاركان على قيادة الأمر، ويضرب المثل للتحذير من تعدد الرؤساء في المكان الواحد. أما الساقية الصغيرة فتدار بواسطة بقرة واحدة لأن عدد قواديسها قليل (12 قادوساً)، ويقتصر استخدامها على ري المساحات الزراعية القليلة، كذلك الشادوف كان يستخدم في الزراعات القليلة وكانت تحتاج لجهد كبير من المزارع، والبكارة كانت لري الحدائق الصغيرة البعيدة عن نهر النيل، في حين يستخدم (النانر) في زراعة الجروف، وهي زراعة كانت موسمية قبل بناء السد العالي، مرتبطة بالفيضان الذي يغمر الشواطئ لعدة شهور ثم ينحسر مخلفاً الطمي الخصيب الوفير القادم مع ماء النيل من الحبشة، وكان النوبيون يستغلون هذا الطمي في زراعة بعض المحاصيل سريعة النمو.

ويضيف المهندس محمد قمر في كتابه «الزراعة والري والرعي في بلاد النوبة» أن هناك ساقية ضخمة جداً تسمى (بوب قريدي) كانت تحتاج لعدة أبقار لإدارتها، ووظيفتها ري العديد من الأفدنة، وفي الغالب كانت تتصل مباشرة بالنيل على عكس باقي السواقي التي كانت تجلب الماء من الآبار، وقد اختفى هذا النوع مع بناء خزان أسوان في منطقة شمال النوبة ثم اختفى نهائياً مع بناء السد العالي وتكون بحيرة ناصر التي أغرقت الأراضي النوبية!

مكونات محلية

يقول الباحث محيي الدين صالح إن جميع مكونات الساقية من البيئة المحلية، فهي تصنع من أخشاب شجر السنط والأثل، والحبال تصنع من ألياف النخيل ومن الجريد ومن جلود البقر، والقواديس تصنع محلياً من الفخار المحروق المجلوب من طين النوبة على هيئة أزيار صغيرة، وأرضيات السواقي من جذوع النخيل، كذلك فإن عملية تشحيم الأجزاء المحورية المتحركة يستخدم فيها السائل الأبيض الذي يتقاطر من أوراق شجرة العشر أو من دهان زيت الخروع. ولا يوجد أي استخدام للأسلاك المعدنية أو المسامير في السواقي النوبية التقليدية.

في كتاب «رحلة في زمن النوبة» يذهب المؤلفان محمد رياض وكوثر عبد الرسول إلى أن تقدماً كبيراً حدث للنوبة بسبب دخول الساقية في العصر الروماني، حيث يرى المستشرق الإيطالي مونرو دي فيلارد أنها انتشرت في النوبة بعد القرن الثالث الميلادي.

وقد ساعدت الساقية على اتساع الأراضي الزراعية بصورة مضاعفة بالقياس إلى الري بالشادوف الذي دخل مصر قبل ذلك بألفي عام، ومع انتشار نمط الري بالسواقي زاد السكن الريفي في أماكن لم تكن مأهولة بالسكان من قبل، فقد بدأ التخلي عن نمط السكن السابق المرتبط بنقاط ومدن حصينة. ومع تزايد المساحات المزروعة زاد الرخاء. ويشير الكتاب أيضاً إلى أن المماليك بعد هزيمتهم من إبراهيم باشا سنة 1811م، فروا إلى النوبة وأقاموا دولة مؤقتة في إقليم دنقلة بالجنوب، وشجعوا النوبيين على صناعة السواقي التي يشتهرون بها، حيث كانت التجارة الخاصة بصنع الساقية وإصلاحها من الحرف التي يُقبل النوبيّون على ممارستها.

باختصار

جميع مكونات الساقية من البيئة المحلية، فهي تصنع من أخشاب شجر السنط والأثل، والحبال تصنع من ألياف النخيل ومن الجريد ومن جلود البقر.

■■■

ساعدت الساقية على اتساع الأراضي الزراعية بصورة مضاعفة بالقياس إلى الري بالشادوف.

■■■

المماليك بعد هزيمتهم من إبراهيم باشا سنة 1811م، فروا إلى النوبة وأقاموا دولة مؤقتة وشجعوا النوبيين على صناعة السواقي.

وأخيراً

الخادمة وصاحبة السعادة

سما حسن

مرّت ثلاثة عشر عامًا على آخر زيارة لي إلى مصر. بعدها لم أخرج من قطاع غزة المحاصَر، ولكن بقيتْ معي ذكرى لا تُنسى لإنسانة بسيطة، أرادت أن تعبِّر لي عن مشاعرها المتنَّة؛ فمنحتني غطاءَ رأسٍ مزركشًا، من تلك الأغطية التي تضعها الفلّاحاتُ المصريات على رؤوسهن، على سبيل التزيُّن، وقد عدتُ بذلك «المنديل»، واحتفظت به كلَّ هذه السنين. وفي كلِّ مرَّة أراه غافيًا في أحد أدراجي، أُقرئ صاحبته السلام، وأتساءل بيني وبين نفسي: أين وصلت بها الحياة اليوم؟

اسمها فكيهة، والاسم نفسه يضع في مخيّلتك صورةً لصاحبته، فهي ذات بشرة سمراء محبَّبة، وقامة طويلة، وشعر مسدَل طويل، ناعم كالحرير، وقد قدِمت من قريتها تُجاه عروس البحر، الإسكندرية، مع رضيعتها وزوجها؛ بحثًا عن الرزق، فعمل زوجها الشابُّ المفتول العضلات حارسًا للبناية التي أقمتُ فيها، فيما تنقَّلتْ فكيهة بين الشقق السكنية، في الطوابق المختلفة؛ للعمل في التنظيف هنا وهناك. وقد لفتني أنها تهتمُّ بنظافتها الشخصية، ونظافة طفلتها، ولا يمكن أن يتصوَّر المرء أن فكيهة تغسل أسنانها، كلَّ صباح؛ فتبدو لامعةً برَّاقة، كما أنها تغسل يديها، باستمرار، بعد كلِّ عمل تقوم به، حتى تصوَّرتُ أنها مصابة بفوبيا النظافة.

جمعتني بها أحاديث كثيرة، وعلمت منها أنها تنحدر من أسرةٍ ريفيَّة بسيطة، وقد افتتحتْ في قريتها كُشكًا صغيرًا، تبيع فيه الحلوى للأطفال، ومن ربحها جمعت مبلغًا لمصاريف زواجها. وفي يوم عودتي إلى بلدي، كانت تمنحني غطاء الشعر الزهري المزركش، وتخبرني بأنه عزيز على قلبها، فقد اشترتْه من مالها، ضمن أغراض «جهاز» زواجها. وعدتُها بأن أحافظ عليه، منحتُها مبلغًا صغيرًا؛ من أجل طفلتها، وفرَّقتنا الأيام والمسافات، ولكنني لم أنسَ فكيهة، ولا رائحتها الزكية التي يفوح منها صابونٌ بلديٌّ مصريٌّ شهير، تملأ إعلاناتُه الشوارع وواجهات البنايات.

تذكّرتُ فكيهة، حين قرأت مقالًا مُستعادًا لـ«صاحبة السعادة»، إسعاد يونس، عن فتاة صغيرة، وفقيرة قدمت من الرِّيف؛ للعمل خادمة في بيت عائلتها، اسمُها فتحيَّة. شعرتُ بذلك الكمِّ من الازدراء والسخرية من هذه الخادمة، وكان أكثر جوانب سخرية القلم الساخر، الممثلة، والمنتجة، والمذيعة، وصاحبة الأعمال الاستثمارية، من ملامح تلك الفتاة التي لا ذنبَ لها فيها، ولا جريرة؛ فهي في الأصل والنهاية خلقة الله، كما ملامح إسعاد وغيرها من البشر.

كما كتبتْ إسعاد، جاء بالخادمة فتحيَّة والدُها للعمل خادمة؛ ما يعني أن الفقر قد بلغ مبلغه بهذه الأسرة الريفية، ولكنها لم تلتفتْ إلى ذلك، وأسهبت في وصف مظاهر قذارة الطفلة الصغيرة، وكذلك أنها لم تفلح في تعلُّم شيء، في فيلّا عائلتها. وهذا يدلُّ على أن الطفلة، وبسبب سوء تغذيتها، والأمراض الجلدية التي نالت من صحَّتها، ربما كانت تعاني من تخلُّفٍ عقليٍّ، أو من قصور في الذكاء؛ فهي لم تتعلَّم شيئًا، على عكس ما يشاع عن القَرويات؛ أنهنَّ لَمّاحات وفطِنات، كما أن الفتاة التي تحضر للعمل في بيت عائلة ثريَّة تكون حريصةً على إرضاء أهله، وتتبُّع مواضع إعجابهم، وتصبح، بعد فترة قصيرة، كأنها أحد أفراد هذا البيت؛ حرصًا منها على لقمة العيش. ولكن ذلك لم يحدث مع الخادمة فتحيَّة التي كسرت زهرية ثمينة؛ فنالت علقةً ساخنة، لم ترحم طفولتها، وولَّت الأدبار؛ هربًا من ذلك البيت.

قصّة هروب الخادمة الصغيرة جريمة، يُفترض ألا تنام عينُ إسعاد وأسرتها بسببها. ولكن ذلك لن يحدث، أمام تغطرُس أمثال إسعاد، وحرصهم على مصالحهم الشخصية، وتلوُّنهم، بحسب أهوائهم. وقد أشارت إسعاد، في مقالها، إلى تاريخ محدَّد لهروب تلك الخادمة، 30 يونيو/ حزيران، في إشارة ضمنية منها إلى تاريخ إسقاط الإخوان المسلمين. وربما دفعني تحديد هذا التاريخ بدقّة إلى الاعتقاد أن القصة مختلقة، ومن بنات أفكار صاحبة السعادة، وهي، في هذه الحالة، سارقة السعادة، التي سأشكرها فقط؛ لأنها دفعتني إلى الحنين لذكرياتي مع فكيهة، وتحرّي أخبارها من جديد.

> كما كتبتْ إسعاد، جاء بالخادمة فتحيَّة والدُها للعمل خادمة؛ ما يعني أن الفقر بلغ مبلغه بهذه الأسرة الريفية

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**